كلمة أخيرة

بين العقاد والرافعي
وبيني وبين الرافعيين
للأستاذ سيد قطب

من بين الرسائل التي تلقيتها في أثناء كتابة هذه الفصول رسالة يقول فيها كاتبها الأديب « صلاح الدين الصدفي » بعد كلام كثير :

« . . . ونحن يا سيدي من سكان الريف الذين كثيراً ما يتأثرون بالآراء المتداولة ، والاشاعات المتصلة ، وقد كنا نعتقد أن العقاد كاتب سياسي من الطراز الأول ، ولكنا نفضل عليه في الكتابة الأدبية آخرين ، أسهل منه في الفهم ، وأعرف لدى الجماهير ، ثم تابعنا كلماتك فاستطعت أن تشوقنا إلى قراءة مؤلفاته النثرية على ضوء جديد ، ولكنا إلى أمد قريب كنا لا نميل إلى الاعتراف بشاعرية العقاد ، فان كان شاعراً فهو شاعر الفلسفة والتأمل لا شاعر العاطفة ، وإذا سلمنا أن له في شعر العواطف شيئاً ، فما كنا نصدق أنه شاعر غزل . وأخيراً انكشفت عنا هذه الحجب التي بثثتها فينا دعايات مغرضة ، وإذا بنا نفهم أن العقاد هو كل أولئك ، وأنه ممتاز في جميع مناحي الشعور ، متفوق في كل هذه الاحساسات ، وأسفنا على ضياع زمن طويل ، لم ننتبه فيه إلى خصوبة هذا الانتاج الوفير . . . »

هذه الرسالة جماع ما ورد إلي في رسائل متفرقة ، وفي هذه الفقرات القصيرة ما يبرر البسط والتوسع الذي عالجت به « غزل العقاد » خاصة ، وإن كنت أحس أن في القول منسماً وأن غزل العقاد وشعره عامة ، يصلح لدراسات مستفيضة ، ولشروح وتآليف تجلي منه — كما يستحق — مذهباً قائماً ، معروف المعالم ، واضح السمات .

وشعر العقاد فن خصب ، صالح للدراسة على أنماط مختلفة من الطرق والأوضاع ، فتستطيع أن تدرس فنونه كل فن على حدة كما صنعت في « غزل العقاد » وتستطيع أن تدرس اتجاهاته وتلتمس لها أمثلة من مختلف فنونه ، كما صنعت في محاضرتي عام ١٩٣٤ عن « وحي الأربعين » . وحيثما اتجهت في الدراسة وجدت مادة جديدة ، وذخيرة فنية ، لأن العقاد صاحب طبيعة وصاحب فلسفة معينة في الحياة .

وقد اخترت أن أعرض « غزل العقاد » لأن الغزل عامة ، وعند العقاد خاصة ، معرض لجميع القوى النفسية التي تجيش بالشعر ، وتحفز للتعبير ، وفيه تستطيع أن تدرس نظرة الشاعر للكون والحياة وأغراضهما الأصيلة وآمالها الخالدة ، وتقف على رأيه في المثل العليا والأخلاق والفضائل ، وتميز إحساسه بالمرأة والفنون والجمال ، على نحو ما رأى القراء في الفصول السابقة .

ثم لقد كان هنالك دافع آخر لاختيار الغزل فلقد كان حديثي عن الرافعي في غزله أو ما كتبه هو على أنه غزل ، وكان أمامي لاثبات رأيي في كلا الرجلين طريقان : الأول أن أعرض ما قاله الرافعي في هذا الباب وأفنده ، وهذا عمل أعتقد أن لا غناء فيه ولا جدوى منه لي ولا للقراء ، فقد قرأت كل ما كتبه الرافعي في هذا الباب ، فاذا هو خواء مقفر من كل عاطفة وإحساس ، فاذا أنا عرضته ، فانما أعرض قطعة من صحارى النفوس ليس فيها ندى ولا حياة ، ولن يصبر القراء معي — إذا أنا صبرت على قطع هذا القفار الموحش المتشابه الأرجاء . وبحسبي وحسبهم ما استعرضته من مثل هي نماذج لكل ما هناك

والثاني — وقد اخترته — أن أعرض غزل العقاد ، فأكشف عن هذا العالم الحي الناضج المضطرب بشتى الانفعالات والاتجاهات ثم يخلص بنا القول فيه إلى أن كل ما تجده هنا لا تجده عند الرافعي ، لأن العقاد والرافعي مختلفان متناقضان

ولقد شاءت الظروف أن يكون العنوان : « بين العقاد والرافعي » فتوجد رابطة بين اسمي هذين الرجلين ، لا وجود لها في أدبهما ولا اتجاههما ولا في شيء مما يصح فيه التشابه والارتباط

والواقع لقد كان في هذا الجمع بينهما ظلم لكليهما : فأما العقاد فمظلوم — ولا شك — أن يقرن اسمه إلى اسم الرافعي ، وبينهما هذه الهوة السحيقة الفاصلة ، الهوة التي تفصل بين الصورة الفنية ترمز إلى معنى وتكاد تجيش بالحياة ، وتهمس بالنطق والتعبير والنقوش التي تراها على أبواب المساجد ونوافذها : خطوطاً متعرجة أو مستقيمة ودوائر ومثلثات ومربعات كلها من عمل

المسطرة والبرقار، ولا شيء وراءها غير المهارة في اللعب والتزويق

فعشاق الصور الفنية محال أن يلتفتوا إلى هذا العبث على أبواب المساجد وأمثالها من شغل « الأرابسكة » المعروف عند النجارين، مهما بلغ التفنن في نقوشه وألوانه، وعشاق «الأرابسكة» لا يتطلعون إلى فهم الصور الفنية بحال من الأحوال

والرافعي كذلك مظلوم — ولا شك — أن يقرن اسمه إلى اسم العقاد؛ فيطالبه النقاد حينئذ بالحياة والحركة والعمق، أو يطالبونه برأي معين في مسائل الحياة الكبرى وفي نواحي الاحساس والشعور، وارجل في عالم آخر غير هذا كله، عالم الأخشاب المنقوشة والشرفات المزركشة، والأصباغ والألوان. وما زلت كلما عدت إلى قراءة شيء من كتابة الرافعي، يمتد بي الخيال إلى « البهلوان » الذي « يتقصع » في مشيته ويضع يده في خاصرته، ويأبى أن يسير في الطريق بخطوات سهلة كما خلقه الله!

* * *

أما شأن الرافعيين معي، فشأن الرافعي مع العقاد سواء بسواء. كنت أعرض لهم الحياة الماثلة الهائجة، فيعرضون لي النصوص والألفاظ؛ وكنت أحاول أن أفتح أبصارهم وأنتق إحساسهم، وأفهمهم أن في الدنيا شيئاً غير التعبير المزوق، وغير اللفتات الذهنية القريبة، وللمعاني القولبية، والجمل المثنية المتراقصة، فيأبوا إلا أن يعودوا إلى هذا العبث العابث في لف ودوران

ولست على استعداد أن أستعيد ما قلت وقالوا، فقد أنفقوا — على ما يظهر — كل رصيدهم في هذه الكلمات المكرورة المعادة التي كتبوها، وما هذا بعجيب، فما لهم رصيد سوى بضع جمل وبضعة تعبيرات، وما كان لهذا العالم المصنوع الذي يعيشون فيه، ولا ينفذون منه أبداً إلى نجدة الحياة، أن يكون له رصيد مذخور سوى الخواء والافتقار

ولكنني أريد أن أعرض لبعض ما قاله مندوبهم الأخير، وأعاد به ما قالوه واحداً بعد الآخر في جهد وإعياء شديد

لقد أخذ يردد نقمة العوام في الموتى والأحياء، ويعتمد على شعور هؤلاء العوام في تقدير موقفي وأنا أتحدث عن العقاد الحي، وموقفهم وهم يناقشون عن الرافعي الذي مات

والمسألة — في ظاهرها — كما يقولون، ولكن الواقع غير ذلك، فأنا في دفاعي عن العقاد أمجد وأشرف من دفاعهم عن الرافعي، إذا كان مناط الحكم في هذا ما يناله كلانا من ربح أو خسارة، على النحو الذي يفهمونه هم من الربح والخسارة

فماذا يكلفهم الدفاع عن الرافعي؟ إنه لا يكلفهم شيئاً، بل على العكس يكسبهم حسن الأحدوثة — لدفاعهم عن رجل ميت — عند عوام القراء والأدباء في هذا البلد وهم بحمد الله كثيرون؛ ويكسبهم — كما يريدون — سمعة المدافع عن الدين، وأتباعه باللابين في مصر والبلاد العربية؛ ويكسبهم محبة الأسلوبيين والعاجزين عن التحليق في الأجواء الفنية العالية، وهؤلاء يكونون تسعين في المائة من القراء بل من الأدباء، ولا يتعرضون لخطر واحد مما يتعرض له أنصار العقاد

أما الدفاع عن العقاد فيكلفني التعرض لغضب الكثيرين من ذوي النفوذ في هذه الوزارة وفي كل وزارة، ومن بينهم كثير من رؤسائي في وزارة المعارف نفسها، لأن العقاد رجل لم تبق له قولة الحق صديقاً من السياسيين، وكثير ممن يظهرون صداقته يكنون له غير ذلك لأنهم ينفسون عليه شموخه واعتداده بنفسه وتعاليه على الضرورات

ويكلفني خصومة الأدباء من المدرسة القديمة والحديثة على السواء. فأما أولئك فبسبب سخطهم معروف، وأما هؤلاء فلأنهم ينفسون على العقاد أن يعطيه ناقد بعض ما يستحق من تقدير، ومن لا يعرف هذه الحقيقة فأنا — وقد أتاحت لي الظروف الاطلاع على داخلية كثير من الصحف والأدباء — أعرف ذلك وأعرف أن الكلمات التي يقدر فيها العقاد لا تجد طريقها سهلا للظهور في الصحف على اختلاف أهوائها ونزعاتها السياسية، واختلاف المشرفين عليها من الأدباء وغير الأدباء

ويكلفني خصومة كثير من ناقصي الرجولة — وهم أعداء العقاد الطبيعيون — وكثير من ناقصي الثقافة الذين لا يفهمون العقاد فيحملونه تبعة عدم فهمه ولا يكلفون أنفسهم عناء الدرس والثقافة. وكثير من مثاقيل الطباع الذين يستثقلون أمام كل أدب حي. وكثير وكثير ممن يؤلفون أكثرية القراء في هذا البلد المنكوب...

وقد يفهم هؤلاء النقمون أن للعقاد الآن نفوذاً ننتفع به؛ فلهؤلاء أقول: إن للعقاد نفوذاً نعم، ولكنه لا يستخدمه

فى قضاء المصالح وتنفيذ الأغراض ، إنما يحتفظ به لنفسه فى إبداء آرائه ، واستقلال شخصيته ، وتحطيم من يستحق التحطيم وبناء من يستحق البناء

وذلك بغض النظر عن طبيعتى الخاصة فى الانتفاع بنفوذ الأصدقاء ، ذلك الانتفاع الذى يدو غير مفهوم ، حينما كنت أناصر العقاد وهو خصم الوزارات القائمة ، وأوقع على ما أكتبه بامضائى الصريح ، فى أحرج الأوقات

فخرافة الموتى والأحياء لا يرددها هؤلاء ، إلا كما يرددها الأميون والعوام

وقد استكثر مندوبهم الأخير أن أقول : إن العقاد انتصر على الوفد وعنده عدة المال وعدة الحكم وعدة الماضى الوطنى وكل عدة تؤهل للنجاح .

والذين يعيشون فى ظلام الجحور يحق لهم أن يعجبوا لهذا الكلام . أما الذى وقف على صنوف محاربة الوفد للعقاد وهو فى إبان سطوته ، وعرفوا أنها لم تقف عند الخصومة الشريفة فى سلاح ولا وسيلة ، والذى يذكر الظروف التى خرج العقاد فيها على الوفد وما تلاها ، فانما يعلم أننى اقتصدت فى هذا المقال !

الذى يعلم أن هذه الخصومة وصلت إلى حد محاربة العقاد فى اللقمة ، فلم تكتف بمحاربة الصحف التى يعمل فيها حتى يكف عن الكتابة الشهور الطوال ، بل كانت تدفع لأصحاب المكتبات مئات الجنيهات حتى لاتبيع كتابا للعقاد ، وأى كتاب ؟ إنه كتاب سعد زغلول الزعيم الأول لهؤلاء الخصوم ؟

والذى يعلم أن هذه الخصومة هاجت وماجت لأن العقاد ألقى محاضرة من محطة الاذاعة الحكومية — على عهد الوزارة الصديقة — ولأن هناك مبلغا يدفع قيمة لهذه المحاضرة ، فاما أن تكف المحطة عن محاضرات العقاد وإما أن تعاقبها الحكومة باهمال تحصيل الضريبة !

والذى يعلم أن هذه الخصومة كانت تلجأ إلى أصدقاء العقاد لتتخذ منهم جواسيس عليه وتدفع لهم ثمن هذه الجاسوسية علاوات وترقيات ومكافآت ، فلم يسلم من هذا الاغراء إلا القليلون من خواص العقاد !

الذى يعلم هذا وسواه ، ويعلم أن العقاد خرج والوفد فى عنفوان قوته الأدبية والمادية ، وجرؤ على ما لم يجرؤ عليه إنسان قبل ، فحطم قداسة الأصنام ، ولفح هذا الجسم الضخم بجراثيم الفناء التى ظلت تعمل عملها حتى خرّ بعد ذلك فى الميدان

الذى يعلم كل ذلك لا يستكثر ما قلت ، إلا أن يكون كصاحبنا يعيش فى صومعة لا ينفذ إليها الضياء

وحكاية الدين والأدب ، التى لجّ فيها ، وجعلها محور الحديث ، وقد تهكمت عليها من قبل ، لأنها لا تناقش بغير التهكم ، فأريد أن أفهم إذا نحن سرنا على هذه القاعدة العجيبة ، وأسقطنا من حسابنا الأدب غير الدين فى الأدب العربى كله ، ماذا يبقى لنا بعد ذلك من هذا التراث الضخم ؟ اللهم إلا قصيدة البردة وبائت سعاد وبعض الأدعية والأوراد !

وصاحبنا أستاذ الكيمياء فى كلية الطب — هكذا كتب أخيرا ليهددنا بعلمه الغزير ويبكر علينا علمية التفكير وعلمية الأفكار ، ويشرح خواص الذهب الوارد فى بيت الرافعى . ومع هذا يطاوعه علمه أن يقول : إن الكيماويين يصفون الذهب بأنه فلزنبيل ، والذى وصل إليه علمى القليل أن هؤلاء الكيماويين يصفون الذهب بأنه فلزبليد لأنه لا يتفاعل مع الأكسجين ولا مع كثير من الأحماض ، ويصفون معدنا كالحديد مثلا بأنه فلزنشيط لسرعة تفاعله ، لأن مدار وصفهم للفلزات قائم على أساس التفاعل لا الثمن ، ولا أدرى من أين أتى صاحبنا بهذا القول الفريد !

ولست أعنى بهذا أن أناقش الكلام الطويل العريض الذى فسر به أبيات الرافعى ، فسواء كان الذهب نبيلا أو خسيسا ، فسيبقى شعر الرافعى وأدبه كله يدور حول الصور الذهنية الكابية ويتيه فى القفر الجامد اليباب

* * *

وبعد فقد رأى الناس مما كتبه هؤلاء وما كتبه الرافعى قبلهم ، أنه ليس من اليسير عليهم فهم العقاد ، وأنه ليس من مصلحة العقاد أن يفهموه ، فما هم بمستطيعين فهمه حتى يسف هو ويقفر ويمسخ خلقاً غير هذا الخلق الباسق الجبار .

ولقد اطمأن العقاد إلى مكانه من الشهرة ومقامه من الخلود ، فما يعنيه أن يثلبه ألف رافعى ، وما ينقصه أن يقول فيه هؤلاء الرافعيون .

وفى نهاية هذا البحث أجد لزاماً على أن أشكر للرسالة وصاحبها إفساح هذا المجال ، وأرجو أن أكون قد أفدت القراء بقدر ما استغرقت من فراغ . والسلام .

حلوان عبد قطب